

مادة التصوف / مرحلة رابعة

م . د . علي فالح علي

تشتمل مادة التصوف التي تُعطى لطلبة المرحلة الرابعة على موضوعات عدّة ، يأتي في أول هذه الموضوعات التعريف بالتصوف ، وتبيان المعنى اللغوي – الاشتقاقي – لهذا المفهوم ، وكذلك المعنى الاصطلاحي له ، ففي المعنى الأول نتناول الآراء التي قيلت في المعنى اللغوي والأصل الذي إشتق منه التصوف ، حيث نستعرض تلك الآراء التي جاء بها المهتمون بهذا المجال ، ومن هذه الآراء ، على سبيل المثال ، كلمة الصوفانة التي هي البقلة التي تنبت في الصحراء والتي دأب المتصوفون على تناولها ، وكذلك كلمة صوفيا التي تعني (الحكمة) عند اليونان ، وغيرها من الآراء ، كأهل الصفة وأهل الصفاء ، حتى استقر الرأي على كلمة الصوف الذي كان يُميز العبّاد في ارتدائه عن غيرهم من الناس ، فقد كان لبس الصوف ، كما في المرويات ، هو (شعار الانبياء وديّار الأولياء) كذلك إن الاشتقاق اللغوي لا يصلح لمفهوم التصوف إلا إذا أرجعناه لكلمة الصوف .

وأما المعنى الاصطلاحي لكلمة (التصوف) فحاله كحال مفهوم الفلسفة ، من حيث إنه ليس بالإمكان حصر تعريف واحد لها ، ويرجع الأمر الى أسباب عدة ، يأتي في مقدمتها ، هو ان التصوف قد تعددت تعريفاته وحدوده بتعدد المنضويين تحت لواءه ، فكل متصوف تعريف خاص به يتوافق مع الطابع العام لتصوفه ، ولكل تيار ومدرسة صوفية لها ما يُميزها عن المدارس والتيارات الأخرى ، لذلك لا يمكن الاستقرار على تعريف واحد للتصوف ، لكن هذا لا يعنى استحالة الوقوف على تعريف يستوعب الحدود التي وضعها أربابه له ، فهو بعبارة بسيطة ، يرمي الى الاتصال بالخالق بطرق ومسالك لم يعتد بها المسلمون ، أو بعبارة أخرى نقول ان للتصوف طريقاً باطنياً وسلماً مغايراً يجتهد المتصوفون على سلوكه ، فهو إذن يؤكد على بواطن الامور أكثر من ظواهرها ، فعلاوةً على الظواهر الشرعية التي يجب على المسلم السير وفقها ، فا المتصوف يؤكد على الحالة الباطنية أكثر في علاقته بمربوبه ، وعليه فان التصوف سيكون في النهاية هو (استبطان الحالة الدينية للانسان)

ومن الموضوعات الأخرى التي تناولناها في مادة التصوف هو البواكير الأولى لظهور التصوف على الساحة الإسلامية ، والمراحل التي مرّ بها التصوف على طول مسيرته في التاريخ الإسلامي ، إذ يُقسم التصوف بحسب الأدوار التي مر

بها ، فمن مرحلة الزهد البسيط التي عاصر حياة المسلمين في الصدر الاول للاسلام ، والذي يُقصد به الرسول الكريم والصحابة الأوائل ، ومن ثم مرحلة الزهد المنظم الي بدء مع نهايات القرن الأول للهجرة واستمر الي بداية النصف الاول من القرن الثاني الهجري ، ليبدء دور جديد ومهم من أدوار التصوف وسُمي بالتصوف العملي ، الذي ظهر فيه مصطلح التصوف لأول مرة الي العلن ، وبالكوفة بالتحديد ، على يد جماعة من زُهاد الكوفة من أمثال (عبدك الصوفي و ابو هاشم الكوفي وكذلك جابر بن حيّان الكيميائي الشهير) لينتقل التصوف بعد ذلك الي مرحلة المدارس والنظريات الصوفية الممزوجة بالفلسفة ، مع بداية القرن الثالث الهجري والذي يُعد العصر الذهبي للتصوف ليستمر هذا الدور على مدى قرنين من الزمن ، وفيه ظهرت أهم المدارس والشخصيات الصوفية في الاسلام ، التي بقيت صداها الي وقتنا الحاضر مدار بحث وتفصيل وقراءة ، ونذكر من أولئل على سبيل الذكر لا الحصر (ابو يزيد البسطامي والحسين بن منصور الحلاج وشهاب الدين السهروردي ومحي الدين بن عربي)

وأما الموضوع الآخر من موضوعات مادة التصوف فيتمثل في الاسباب والعوامل التي أدت الي ظهور التصوف في الاسلام ، إذ ان التصوف لم يخرج الي العلن دون عوامل ساهمت وبشكل كبير على ولادة هذا الحقل المعرفي في الفكر الاسلامي ، نذكر منها العامل الاقتصادي والعامل الديني والعامل السياسي الذي يُعد من أهم العوامل المتعلقة بها الموضوع ، وكل هذا العوامل المذكورة يُصنفها الباحثون من العوامل الداخلية ، ذلك إن هنالك عوامل أخرى تعد من المؤثرات التي عملت على تغذية التصوف في الاسلام والتي تُسمى بالعوامل الخارجية ومنها الفلسفة الفارسية المتمثلة بالديانة الزرادشتية والديانة المانوية وكذلك العامل الهندي والصيني المرتبط بالديانة البوذية والهندوسية ، وكذلك الفلسفة اليونانية وبالذات الافلاطونية والافلاطينية ، علاوةً على الدين المسيحي واليهودي وما ينضوي تحتها من آراء وممارسات صوفية .

وبالعودة الي موضوع المدارس الصوفية التي ظهرت مع بداية القرن الثالث الهجري ، لا بد من ذكر بعض هذه المدارس لما لها من أهمية كبيرة في توجيه الفكر الصوفي ، وتُعد مدرسة بغداد الصوفية التي أنشأها معروف الكرخي وأرسى دعائمها الحارث المحاسبي من أهم المدارس الصوفية في الاسلام ويعد موضوع التوحيد من أهم موضوعاتها ، أما مميزاتا فقد عُرفت بمدرسة الصحو ، وأهم اعلامها فهو الجنيد البغدادي والسري السقطي وغيرهما ، وكذلك هناك مدرسة خراسان أو ما يُعرف بنيسابور ، والتي عرفت بمدرسة السكر وكان من اعلامها ابو حفص الحداد وحمدون القصّار ، ويعد موضوع الملامتية والفتوة من أبرز معالمها

، لنختم هذا الموضوع بمدرسة مصر والشام والذي يعد كل من ذو النون المصري و ابو سليمان الداراني أشهر ممثليها .

أما اهم النظريات الصوفية التي تُعد وبحق من النظريات التي أُلقت بظلالها على الكثير من الموضوعات الصوفية والفلسفية على السواء ، فلا محيص لنا الا بذكر نظرية الاتحاد التي جاء بها ابو يزيد البسطامي ونظرية الحلول المرتبطة بمتصوف الاسلام الأشهر الحسين بن منصور الحلاج وكذلك نظرية الاشراق لصاحبها شهاب الدين السهروردي ونظرية وحدة الوجود عند محي الدين بن عربي